

## مجاهدة النفس ومحاسبتها



يقول ﷻ سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/ 183).

عندما نستقبل هذا الشهر المبارك، فإنّ علينا أن نعدّ أنفسنا إعداداً روحياً للدخول في رحابه، حيث نشعر كما ورد في الخطبة المروية عن النبيّ (ص)، بأنّنا في ضيافة ﷻ، فعلينا أن نحصل هذه الضيافة، التي هي مغفرة ﷻ ورضوانه ورحمته ولطفه ورزقه، ما يجعل الإنسان قريباً من ربّه بعقله وقلبه وروحه وحياته.

ونحن نحتاج كثيراً للحصول على هذا القرب من ﷻ، لأنّنا عندما نفكّر في وجودنا، نعي أنّ ﷻ هو الذي منحنا هذا الوجود (هل من خالقٍ غير ﷻ) (فاطر/ 2)؟ وإذا أردنا التفكير في حركتنا كلّها في الحياة، فإنّنا ندرك أنّها من نعم ﷻ (وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَامِّنَ ﷻ) (الذّٰل/ 53) (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (الذّٰل/ 18).

إننا نعرف أن حياتنا بآلائها هي من الله، وفي رعايته، حتى إننا يعطينا نعمه على رغم معاصينا وابتعادنا عمّا فرض علينا من واجبات، وهذا ما عبّر عنه الإمام عليّ بن الحسين (ع) في دعاء أبي حمزة الثمالي: "تحيّبُ إلينا بالذّم ونعارضك بالذّنوب.."، "خيرُك إلينا نازل، وشرُّنا إليك صاعد"، فإن يعطينا المأكل والمشرب والمسكن، ونحن نغتابُ ونذمُّ ونأكلُ الأموال بالباطل، ونفتنُّ "ولم يزل ملكٌ كريمٌ يأتيك عنّا في كلِّ يومٍ بعملٍ قبيحٍ"، إنَّها الملائكة التي تقدّم تقريرها إلى الله تعالى "لا يمنعك ذلك من أن تحوطينا بنعمك، وتفضّل علينا بآلائك، سبحانه ما أحلمك وأعظمك وأكرمك، مبدئاً ومعيداً".

كما وقد أدركنا أن كلَّ ما نملك في هذا الكون الرحيب وما عندنا، هو من الله الخالق (فَتَدَبَّرَكَ اللَّاهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون/ 14)، فكلُّ ما في الطبيعة من ماءٍ وهواءٍ وخلايا وأجهزة داخل الجسم، كلّها خلقُ الله، فهل يمكننا الاستغناء عن مقومات الحياة الكونيّة والإنسانيّة؟

نحن مرتبطون بالله بما لم نرتبط بأحدٍ في هذا الوجود، مربوطون به بكلِّ وجودنا، حتى في لحظة حضور الأجل، وسوف نقيفُ بين يديه تعالى، وهذا الوقوف يوجبُ علينا أن نقيم العلاقة مع الله ونوثّقها، فكيف نوثّق علاقاتنا بمن تربطنا المصالح بهم، ولا نوثّقها بالله الذي نحتاج القرب منه والحبّ المتبادل معه؟

وهذا ما عبّر عنه الرسول (ص)، حين دفع الراية إلى أمير المؤمنين(ع) في معركة خيبر، بعد أن أخفق الجميع: "الأعطين" الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله"، فالحبُّ متبادلٌ من الجانبين. والسؤال: كيف نحصل على هذا الحبُّ؟

لقد بيّن الله هذه القضية الحساسة في القرآن الكريم، ولا سيّما الوسيلة فيها، وهي على لسان النبي: (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَأَفْرِهٍ) (آل عمران/ 13)، لأنَّ الرسول يبيّن عن الله تعالى، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فاتّباع الرسول محبّةٌ لله، لأنَّه يحبُّ التوابين "إنَّ الله يحبُّ العبد المُفْتَنَ التَّوَّابَ"، والله لا يحبُّ الخائنين والكاذبين والمنافقين، وإنَّما يحبُّ الصادقين، كما أنَّه تعالى لا يحبُّ المجرمين أو الظالمين؛ فهل يُعقّل أن تحبُّ وتظلم وتفسد في الأرض؟

والظلمُ ليس بمعنى الحاكمية، وإنَّما الظلم أن تأخذ الحقَّ وتغصبه ممن له حقُّ عليك. والظلم يكون من خلال الاعتداء على الناس الضعفاء أمامك، وهذه مسائلٌ تحتاج إلى مناقشةٍ وحسابٍ مع النفس، لأنَّنا

مشغولون عن أنفسنا، فعن أمير المؤمنين (ع): "مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ غَيْرِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ نَفْسِهِ"، النفس الأمّارة بالسوء، والتي لم يفكّر أحدنا أن يجلس معها ليسألها عن نقاط ضعفها وقوّتها، وليتساءل معها: كم كذبة كذبت؟ كم غيبة؟ كم ظلماً؟ كم شتيمة؟ لنكن أصدقاء أنفسنا، فصدّيقك مَنْ صدّقك لا مَنْ صدّقك.. أن ننهي هذه النفوس عما يضرّها، ونرشدّها إلى ما ينفعها: "يا نفسُ، ما نهى الله عنه فهو مما يُفسد حياة الإنسان في دنياه وآخرته، وأمّا ما أمرَ الله به، فهو مما يصلح حياة الإنسان في دنياه وآخرته".

فلنفكّر بهذه الطريقة، ونحن في ضيافة الله، حتى نخلص في شتّى أمورنا، وحساب النفس ليس أمراً سهلاً، إنّه يتحرّك في عالم الشهوة والمزاج (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ \* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النازعات/41-40)، فالإنسان مدعو لفهم نفسه وحسابها ومحاكمتها ومجاهدتها، "اجعل نفسك عدوّاً تجاهده، لأنّها أمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي".